آفاق مستقبل العلم والدين
ومشروع مدرسة الزهراء للنورسي

أ. كنعان دمير طاش
مركز بحوث العلمية، بسل- استانبول

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه أجمعين

حضرات الأساتذة الكرام والإخوة الأعزاء والأخوات الفاضلات

عليكم بتحية الإسلام فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته- وبعد

إن الإنسان لا يمكن نفسه من الخير، إن يرى دينا بنزوله رب العالمين وبحث أحمد على طلب العلم أيما كان وأنى كان وبحث رسوله الحبيب صلى الله عليه وسلم على العلم بأقواله وأفعاله ثم يؤول أمر أحد هذا الدين إلى جهالة جهلاء في عصور متتالية

فإذا ما ألقينا نظرة إلى أواخر الدولة العثمانية نرى الأمر بوضوح أن العلم قد اقتصر على دراسة النحو والصرف حتى كان الطالب يصرف جل عمره أكثر من خمس عشرة سنة في "نصر ينصر نصرا نصروا..." وحفظ معاجم الألفاظ العربية، حتى غدا ذلك عندهم من المفاخر، إنها ألفاظ تستعصي على الفهم

فبعد هذه السنين التي قضوها في تلقي العلوم الآلية يبدءون بالعلوم العالية التي هي التفسير والفقه وأصوله وما شابه، ناهيك عن العلوم الحديثة

أما العلوم الكونية التي هي من قوانين الفطرة الإلهية، أو الشريعة الفطرية، فقد أهملت كثيرا مع الأسف، بل عدها البعض كلها من العلوم غير الإسلامية، علما أنهم كانوا يحتفظون عن ظهر قلب آيات جميلة تدعو إلى التفكر في السماوات والأرض وإلى التدبر والتبصر... ولكن الواقع الأليم كان هذا

وهذا فأصحاب الاستعدادات الجيدة والقابليات الراقية والمؤهلون لاغتراف العلم أصبحوا أسراء في هذا الجو الخانق، فحصر العلم في زاوية معينة، وحيث أن كل علم أو صنعة يتطلب من أهله أن ينقدوا إلى غوارة، أي يوجهوا كل طاقاتهم وقابلياتهم نحوه، إلا أن الجو الخانق للشريعة الآلية الفطرية حوّل تلك القابليات إلى غير وجهتها، فاختلط الحابل بالنابل

ومن هنا ظهر حب السيادة والتفوق على الآخرين والأمرة عليهم. وجعل العلم سلما للوصول إلى مآرب شخصية ومطالب نفسية. ووسيلة قسر وإكراه.

فمؤسسات هذا شأنها لا شك أن أمرها سيؤول إلى خراب واندراس. وجاء الدور الآتي فألغى هذه الأساسة التي تفجع القلوب. وأقفلت تلك المدارس من جدورها.

هذا الوضع شرودي في المدارس التي كانت تسمى بالمدارس الدينية. نفسه الغيارى من العلماء. وحتى السلطان عبد الحميد نفسه كان يشعر بهذا النقص الوبيع فأرسل طلابا ناهين إلى الغرب للدراسة وتلقي العلوم إلا أنهم عادوا وهم يعادونه أكثر من غيرهم.

ومن بين هؤلاء الذين ألقى مصطفى هذا الوضع بديع الزمان سعيد النورسي الذي بين اليد هذا الوضع. بل كان هو أيضا واحدا منهم. حتى إنه عندما حضر مجلس أساتذة العلوم الحديثة من جغرافية وكيمياء وغيرها شعر بقصوره في هذه العلوم مما جعله يقبل على تعلمها بشغف عظيم حتى أتقنها وأصبح متمكنا لدرجة أنه كان قادرا على التأليف ومناقشة المختصين فيها. وفي مدة قصيرة جدا استطاع أن يتقن الرياضيات والفلك والكيمياء والفيزياء والجيولوجي والفلسفة والتاريخ والجغرافية وغيرها.

ومن هنا أدرك أنه لا بد من تلقي العلوم الحديثة في المدارس الدينية ومن تدريس العلوم الدينية في المدارس الحديثة. كي يأنس كل إلى الآخر. ولا يكون ذلك بدراسة متفرقة أو منفصلة. بل ممتزجة ممتزجة حيث إن:

"ضياء القلب هو العلوم الدينية. ونور العقل هو العلوم الحديثة. فامتزاجهما تتجلى الحقيقة. فتزكى همة الطالب وتعلو بكلا الجناحين. وبافتراقهما يتولد التعصب في الأولى والخيال والشبهات في الثانية".

وفي ضوء هذه الفكرة توجه إلى السلطان عبد الحميد سنة 1907 بطلب تأسيس جامعة في شرقي الأناضول حيث إنها تتوسط آسيا وأفريقيا والبلاد العربية وأفغانستان وإيران والقفقاس وكثير من الممالك العثمانية. وأن تتلقى العلوم الكونية ممتزجة بالعلوم الدينية بحيث ينمو الطالب روحيا وعقليا على الإسلام والإيمان ويكون بعيدا عن مفاسد العنصرية التي بدأت تدب إلى الأوساط الإسلامية بمختلف الوسائل الأجنبية.

فضلا عن ذلك فإن وجود طلاب من هذه المناطق المختلفة وتآلفهم وتآخيهم في حرم علمي روحي يسمى روح الأخوة الإسلامية فيما بينهم فيكونون خير مثال للآية الكريمة: إنما المؤمنون أخوة.

وكان يأمل أن تكون هذه الجامعة حجر الأساس لاحتلال المسلمين في الشرق الأوسط وقلعته الحصينة. وأنها سوف تثمر فوائد جمة لصالح هذه البلاد والعباد. بإذن الله.

وسماها مدرسة الزهراء. على غرار الجامع الأزهر. فكان يقول:

" إن مدرسة الزهراء – لرسائل النور – بحاجة ماسة إلى الجامع الأزهر. كحاجة الطفل الصغير إلى أمه الرؤوم. فهي تطلب دوما أن يسبغ سعفه عليها. إذ هي إحدى طالباته. تتلقى الدرس منه. وهي التي استهدفت من قبل أعداء الدين كثيرين

فهذه المدرسة الزهراء شعبة مصغرة من شعب ذلك الجامع العظيم الذي يترأس المدارس الدينية جميعها وينور بها العالم الإسلامي.

ولأجل هذا تنظر هذه الطالبة الصغيرة عون ذلك الأستاذ الموقر. وذلك الأب الرحيم والمرشد الكبير. وترجو أن تمد يده إليها".

ولا شك أن هذا التفكير بالإصلاح لا يخص سعيد النورسي وحده. بل كثيرون كانوا قد طرحوا مشاريع مختلفة إنقاذا للموقف. ولكن الذي يتميز به مشروع النورسي أنه كان وراء مشروعه طوال حياته. ووضع له أسسا وشروطا وأهدافا ووضح موقعه وسرد فوائده وثمراته وكيفية إدارته وواردانه وصرفياته... الخ. فأورد كل ذلك في ثنايا رسائل النور التي عدها منهجا دراسيا لطلاب هذه المدرسة.

ذلك لأنه كان يعتقد: "أن الإسلام لو تجسم لكان قصرا مشيدا نورانيا ينور الأرض ويبهجها فأحد منازله "مدرسة حديثة". وإحدى حجراته "مدرسة دينية". وإحدى زواياه "تكية". وروافده مجمع الكل. ومجلس الشورى. يكمل البعض نقص الآخر.. وكما أن المرآة تمثل صورة الشمس وتعكسها فهذه المدرسة الزهراء ستعكس وتمثل أيضا صورة ذلك القصر الإلهي الفخم".

ولكن هل تحقق ما كان يصبو إليه ؟

الجواب: نعم. وذلك أن:

تحققها كان برسائل النور منهجا وطلابا:

يقول الاستاذ النورسي: "ان المولى القدير أسس برحمته الواسعة الخصائص المعنوية لتلك المدرسة وهويتها ... فاطلق "رسائل النور" للوجود. وسيوفق - إن شاء الله - طلاب النور الى تأسيس الجهة المادية لتلك الحقيقة أيضاً."

"ولكن لما كان هناك موانع كثيرة جداً تحول دون إنشاء مدرسة الزهراء بصورتها المادية. فهي الآن الدائرة الشاملة لطلاب النور" بمعنى أن كل من يقرأ رسائل النور ويستفيد منها فهو ضمن مدرسة الزهراء. ويؤدي وظيفتها حق الاداء. ولهذا فـ" ان "مدرسة الزهراء" تتوسع وتزود الأذهان والقلوب بسر الاخلاص الحقيقي والنصيحة الخالدة وتولد الاخوة وتتواضع لله وذلك ضمن دائرة النور. وتقوم بنشر هذه الأمور في الأوساط."

"استاذية القرآن: لما كان القرآن الكريم مصدر هذه رسائل النور - كما عبر عنه الأستاذ النورسي مراراً - فهي توجه الانظار الى (استاذية القرآن) للانسانية قاطبة. لكن البشر على السعي الدائب والعمل المتواصل للوصول الى ما ذكره من معجزات الانبياء عليهم السلام وكأنه يدلهم عليها."

"نعم نفهم من استاذية القرآن واشارات درسه ان القرآن يذكره معجزات الانبياء. انما يدل البشرية على ان بظاهر تلك المعجزات سوف تتحقق في المستقبل بالرقي. وحث الانسان على ذلك وكأنه يقول له هذا اصل واسع سحر امثال هذه المعجزات. فاقطع مثلاً مسافة شهرين في يوم واحد كما قطعها سليمان عليه السلام. واعمل على معالجة اشد الأمراض استعصاء كما داواها عيسى عليه السلام. واستخرج ماء الماس على الحياة من الصخر وتعد نسبته من المعادن كما فعله موسى عليه السلام بعصاه."

"وهكذا قياساً على هذا نجد ان القرآن الكريم يسوق البشرية الى الرقي المادي والمعنوي. وينفي عنها الدروس ويثبت انه استاذ خالد."

"لذا نرى ان الرسائل تذكر الأمثلة المحسة وتخوض في غمار العلوم المعروفة. منتقطة منها امثلة واقعية يفهمها القارئ ويستسيغها. حيث انها تقر بالحقائق التي أتت بها العلوم الحاضرة الا انها تعزو سبب الضلالة الماثلة في العلوم الحاضرة الى حصر النظر في الأسباب الظاهرة دون رؤية يد القدرة الحكيمة التي تحيي وتميت الأسباب وفق نظام دقيق."

كيف تدمج العلوم الحديثة بالعلوم الإنسانية؟

نورد مثالا واحدا فقط لبيان كيف يدمج العلم وأسماء الله الحسنى في رسائل النور.

"إن الصانع القدير باسمه "الحكم والحكيم" قد أدرج في هذا العالم ألوف العوالم المنتظمة البديعة. وجعل الانسان - الذي هو أكثر من تمثل احكم المقصودة في الكون وأفضل من يظهرها - موقع الصدارة. وجعله بمثابة مركز تلك العوالم ومحورها. إذ ينطبع ما فيها من حكم ومصالح إلى الانسان. وجعل الرزق بمثابة المركز في دائرة حياة الإنسان. فنجد أن معظم احكم والغايات واغلب المصالح والفوائد - ضمن عالم الإنسان - تتوجه إلى دائرة الرزق وتنتهي به. لذا فإن تجليات اسم "الحكيم" تبدو واضحة باهر صورها وأسطعها من خلال مشاعر الانسان. ومن تضاعيف مذاقات الرزق. حتى غدا كل علم - من علوم العلوم التي توصل الانسان إلى كشفها مما تمتلئ من شعوره - يعرّف تجليا واحدا من تجليات اسم "الحكيم" في نوع من الانواع.

فمثلا: لو سئل علم الطب: ما هذه الكائنات؟ لأجاب: انها صيدلية كبرى أحضرت فيها بأتقان جميع الادوية والأدوات.

واذا ما سئل علم الكيمياء: ما هذه الكرة الأرضية؟ لأجاب: إنها مختبر كيميائي منتظم بديع كامل.

على حين يجيب علم المكان: انها معمل منسق كامل لا يرى فيه نقصا.

كما يجيب علم الزراعة: انها حديقة غناء ومزرعة معطاء. تنبتت فيها انواع الحاصيل. كلٌ في اوانه.

ولأجاب علم التجارة: إنها معرض تجاري فخم. وسوق في غاية الروعة والنظام. ومحل تجاري تحوي أنفس البضائع المصنوعة وأجودها.

ولأجاب علم الاعاشة: انها مستودع ضخم يضم الأرزاق كلها بأنواعها وأصنافها.

ولأجاب علم التغذية: إنها مطبخ ربانى تطبخ فيه مئات الألوف من الاطعمه الشهية اللذيذة جدا إلى حد بنظام في غاية الاتقان والكمال.

ولو سئل علم العسكرية عن الارض! لأجاب: انها معسكر مهيب تساق إليه في كل ربيع جنود مسلحون جُند يؤلفون أمما مختلفة من النباتات والحيوانات يبلغ تعدادها أكثر من أربعمائة ألف أمة. فتنصب خيامهم في أرجاء سطح الأرض. وعلى الرغم من أن أرزاق كل أمة تختلف عن الاخرى. وملابسها متغايرة وأسلحتها متباينة. ونعليماتها مختلفة.

وأحسنه صنعاً. لا ان الامور جميع بسر بنظام وبقوانين جميع فيها دون نسيان ولا التباس. وذلك بأمر من الله تعالى وبفضل رحمته الساعة صادرة من خزينة الواسعة

وإذا ما سئل عنهم بكيفية، لا أحب ان يقف قصر لكون تبديع هذا قد زين بمصابيح جلالته لا حد لكثرتها ولا منتهى لنوعها وبديعها. حتى ان النظام البديع والتناسق الرائع الذي فيه جولان دون تعثر بين المصابيح المسيرة المتوهجة دوما - وهي تكبر الارض ثلاث مرات في تقدمها للشمس - ودون التباس بدورها و بسبوح حولي فيما بينها

وهكذا قياسا على هذه الامثلة. فان كل عضو من مئات الاعضاء يشهد قطعا ان هذا الكون قد زين بحكم ومصابيح سير بنظام كامل لا نقص فيه. وان بين الانظمة البديعة واحكم تناسبا شاسعة لا يعلم عن بعض حكمته المعجزة خطة بالكون قد درجت بمقياس صغير. حتى في صغر كان حي وفي الصغر بذرة.

ومن المعلوم بداهة ان جميع الغايات والدقائق احكم والقوانين بنظام لا تحصل الا بالارادة والاختيار والقصد والتسبب. ولا فلا فكيف ان هذا العمل البديع ليس هو من شان الاسباب والطبيعة - التي لا تملكان ارادة ولا اختيار ولا قصد ولا شعور - فمن يكون فيما تدخل فيه كذلك. لذا فيما اجهل من لا يعرف او لا يؤمن بالفاعل المختار وبالصانع الحكيم الذي يدل عليه هذه الانظمة البديعة و احكم الموقعة التي لا حد لها وهي مبثوثة في موجودات الكون قاطبة

نخلص مما سبق:

ان الرسائل تنسجم مع العقود الكونية الاسبوع الآتي

1- ان قيمة العقود وكثرة جدودها قد حفظ الانبياء عليهم السلام تعجز فهم. وان جميعها تستند الى الاسماء الحسنى وتنتهي اليها

2- ان ما يستعظمه الانسان - من المكتشفات الحديثة - سوف يكون من الامور البسيطة في المستقبل. لذا لا يستحق ذلك الاعجاب الا بقدر ما يذكر بعظمة الله سبحانه

3- ان جميع ما اكتشفه العلم ليس الا أثر من آثار الله سبحانه في الوجود وهو احسن وسيلة لرؤية حكمته سبحانه وقدرته وعظمته

4- لذا لابد من إثارة عنصر التفكير عند الإنسان عند النظر في ملكوت السماوات والأرض، أي تعويده على العبادة الفكرية.

5- ولابد من سرد الأمثلة لتمهيد العقل وتهيئة النفس وتحضيرها لقبول الآيات والأحاديث بإذعان كامل. حيث ضاقت عقول سقيت بغير ماء الإسلام أمام كثير من الآيات والأحاديث الشريفة.

ولما كانت الوسائل تجعل القارئ ينظر إلى الكون وكأنه كتاب رباني مفتوح وقد نقشت فيه أسماؤه الحسنى جل جلاله. لذا فإنه يفهم بكل سهولة حكمة المخلوقات أو الحوادث أو الأمور المختلفة تحت أنوار تجليات تلك الأسماء الحسنى. حيث قد شرحتها مفصلاً في الرسائل المختلفة حتى غدت العلوم الخاصة في حقيقتها آفاقاً لتجليات تلك الأسماء.

ومن هنا يمكننا أن نفهم سبب النجاح الذي أحرزه (مركز البحوث العلمية) الذي شكّله طلاب النور في الآونة الأخيرة والذي أصدر كتيبات علمية إيمانية على مستوى راق،[11] حتى طبعت منها في السنة الواحدة، عشر طبعات. إذ قام بإصدارها أساتذة أكفاء تشربوا بمفاهيم رسائل النور ووعوها وعياً كاملاً. فتمكنوا من صياغة العلم الحديث بأسلوب إيماني بديع مراعين فيها إثارة التأمل والتفكير عند القارئ مع عرض لأحدث المكتشفات العلمية ونظرياتها ومن ثم الوصول إلى الحكيم المدبر في جميع هذه الآثار المبثوثة أمام عين الإنسان. هذا فضلاً عن عدد هائل من دور النشر والعديد من مراكز البحوث والدراسات.

وهكذا نرى كيف وفق الله تعالى سعيد النورسي في مشروعه بصورة شاملة أكثر مما كان قد صممه في جامعة معينة في بقعة معينة وذلك بمدارس رسائل النور في أنحاء البلاد وخارجه.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الهوامش:

---

[1] صيقل الإسلام. المناظرات 428

[2] سيرة ذاتية ص 500

[3] يراجع تفصيلاته في سيرة ذاتية ص 497-511

[4] صيقل الإسلام- المناظرات 430

[5] الملاحق- قسطموني / 126

[6] الملاحق – امبراغ (بالتركية) 1783/1

[7] الشعاعات / 560

[8] صيقل الإسلام – الخطبة الشامية/499

[9] اللمعات ص 532-533

[10] منها: أسرار النجوم. الذرة. الخ وكيف يعمل. جسم الإنسان. من الذرة إلى الخلية. الطاقة والحياة. الكوكب الحي. داروين ونظرية التطور. من الخلية إلى الإنسان. مولد الكون. علم البنة. المنظومة الشمسية. الإنسان ومعجزة الحياة. أسرار النباتات. الدم وجهاز الدوران. مذكرات نحلة. وأسرار الذرة.....الخ.

وقد قام السيد أورخان محمد علي بترجمة باقة من هذه الرسائل العلمية المبتكرة إلى اللغة العربية. نشرت في العراق ومصر والكويت والسعودية والمغرب. منها: داروين ونظرية التطور. الإنسان ومعجزة الحياة. مولد الكون. أسرار الذرة. ومذكرات نحلة.